

الفصل الرابع

الحكم على العمل المبتكر

مقدمة : بالرغم مما ذكر من أوصاف لتحديد مضمون العملية الابتكارية ، وطبيعة العمل الفنى المبتكر ، إلا أنه ليس من اليسير الحكم على الأعمال المبتكرة ، ذلك لأن هذا الحكم يتطلب فهماً أصيلاً ، وثقافة عميقة لكل ما يتعلق بالعملية الابتكارية ، كما أنه يتطلب من المقوم خبرة واعية تمكنه من تمييز العمل المبتكر من غيره . ولما كانت العملية الابتكارية متطورة وليس لها شكل ثابت ، فمن المتوقع أن نشاهد اختلافات في الآراء تجعل عملية الحكم غاية في التعقيد .

اختلاف الآراء : والناس يختلفون في آرائهم حول العمل الفنى لأسباب كثيرة منها : أن خبراتهم السابقة تختلف في الكم وفي النوع معاً ، كما أن التدريب الموضوعى الذى مارسوه ليس له طابع موحد . وترداد الآراء اختلافها كلما تنوعت المهن ، واختلفت التخصصات ، وحتى بين أصحاب التخصص الواحد لا بد أن نجد معايير متفاوتة لطبيعة فهم كل منهم ، وما كونه من عقائد فى أثناء تكوينه .

وقد سبق أن أجرى برت (Burt) تجربته على استجابة

الناس للأعمال الفنية ، وخرج بأربعة أنماط رئيسية سماها :
التشخيصي ، والترابطي ، والفسولوجي ، والموضوعي (١) .
والثلاثة الأول تغلب فيهم الناحية الذاتية على الناحية
الموضوعية ، أما في النوع الرابع : فالناحية الموضوعية هي
الأساس . وما وصل اليه برت يبين في الحقيقة أنواع الاختلافات
التي يمكن أن توجد وبعض اتجاهاتها المميزة ، ولكن بالنسبة
للحكم على العمل الفني المبتكر من زاوية الشخص المتخصص
الذي يعتبر حجة في ميدانه ، فان النظرة الموضوعية هي الأساس ،
وفي تلك النظرة لا بد أن يتخلص الرائي من كل الارتباطات
العارضة ، والمزاج الوقتي الشخصي ، ويهب نفسه قليلا الى العمل
الفني ليمنحه شيئا من مضمونه : ويملى عليه ديانته ورسالته .
والمتفرج إذا تعصب في رؤيته ، لا يتمكن من الرؤية السليمة ،
لأن جرائب تعصبه ستحرمه من أن يكشف لنفسه طبيعة العمل
الفني وما يحمله من قيم .

ويبدو أن التذوق الفني ، والحكم على الأعمال المبتكرة ،
يتطلبان شيئا متناقضا من الرائي ، ففي الوقت الذي يتحتم أن
يجبذ فيه الرائي سابق خبراته ومفاهيمه عن الفن ، لتمكته من
أن يرى عملا فنيا جديدا ، فانه يطالب أيضا بأن يكون غير متعصب
لثقافته ، بل متفتحا يستغل ثقافته الميسرة كمفتاح لكشف المستور

(١) راجع للمؤلف : اصول التربية الفنية ، ص ١١٩ - ١٢٣ .

في الخبرة الجديدة التي يواجهها • فهو يرى في الخبرة الجديدة بقدر ما يحضر لها من سابق خبراته وماضيه ، وفي الوقت نفسه يجب أن يعتبر هذا الماضي وسيلة وليس غاية • فلو أنه اعتبره غاية لما استطاع أن يرى أي جديد في الخبرة الفنية المبتكرة التي يتعرض لها •

معايير مدرسية : على أننا لو حللنا الماضي ، قد نجد في طياته مبادئ وأصولا كثيرة من بينها المعايير المدرسية التي تعلم في كليات الفنون ومعايده ، بقصد تقريب التلميذ من فهم الحقيقة الفنية • ولكن هذه المعايير المدرسية غالبا ما تتضمن بعض القواعد الجافة : والوصفات الآلية ، وهذه القواعد والوصفات إن نفعت في بعض الحالات ، قد لا تنفع في حالات أخرى ، لأن طبيعة العمل الفني المبتكر لا تخضع لقاعدة سابقة . أو مظهر آلى محفوظ • وقد يفيد الرائي أحيانا أن يكون متفهما لبعض تلك المبادئ والأصول الفنية : كالشرح ، والظل والنور ، وقواعد المنظور ، وخط الألوان ، وعمليات التوافق والتباين والإيقاع ، وأنظمة التكوين المختلفة • ولكن هذه المبادئ ليست مطلقة ، أي أنها ليست بالضرورة العوامل التي تؤدي إلى ابتكار مضمون • وتطبيقها في أي حالة من الحالات ، إنما يخضع لطبيعة العمل الذي تطبق فيه ولكيانه ، أي أنه ليس لها شكل ثابت تظهر به ، وإنما تتكيف من خلال العملية

الابتكارية فتأخذ شكلها ، ولونها ، ومظهرها المميز من الكيان الكلى للعمل الفنى المبتكر الذى دخلت فيه كأحد مقوماته المختلفة . ولذلك فان الانسان يحتاج لفهم أعمق من مجرد التطبيق الآلى للمعايير المدرسية . ويلاحظ أيضا أن تلك المعايير قد تكون معوقا فى كثير من الحالات ، فلا تساعد على تمكين المتذوق من رؤية العمل الفنى المبتكر ، أو الحكم عليه حكما سليما . وذلك اذا اتخذت كنهايات مطلقة فى حد ذاتها .

ومما هو جدير بالذكر أن طلبة الفنون كانوا يدرسون مثلا أن الصورة تقل فى قيمتها إذا كان نصفها الأيمن يماثل نصفها الأيسر ، وأنها تكون ذات قيمة أفضل لو أنها اتخذت فى تكوينها شكلا هرمياً ، وكانت هناك مواصفات للألوان التى توضع فى أروضيات الصور بحيث تتناسب مع أشكالها . فكل هذه الوصفات كان يحفظها الطلاب ويرتبون انتاجهم عليها . ولكن الفنون الحديثة غيرت من قدسية هذه القواعد - بحيث أمكن إيجاد صور كثيرة ناجحة أحيانا متماثلة ، وأحيانا بلا نظام هرمى . فالمبادئ التى يستند عليها العمل المبتكر هى خاصة بهذا العمل ونجده ولا تنطبق على أى عمل فنى آخر .

الفنان هو الحاكم الأول على فنه : وعلى الرغم من محاولات النقاد والفنانين فى تفسير الأعمال المبتكرة ، وشرح كنهها . وتقريبها من الأذهان إلا أن الحكم الصحيح على العمل الفنى ،

يصدر عادة من الفنان نفسه حينما يكون واعيا بما يعمل ويؤدي ما ينتجه بذكائه . والفنان في الحقيقة ، هو الحاكم الأول على فنه ، وهو الذى يعرف موضع الذلل أو النقص ، وموضع القوة والنجاح ، وهو الذى ببصيرته النفاذة ، يمكنه أن يترسم الخطوة التالية التى يصح أن يخطوها . يقول بيكاسو واصفا حالته حين يبتكر مستكرا إمكانية أى متفرج فى أن يدرك بالضبط ما أراد أن يسجله ، يقول بيكاسو : « كيف نتوقع من متفرج أن يعيش صورتي مثلما عشتها ؟ إن الصورة تأتى الى من أميال بعيدة ، فمن ذا الذى يستطيع أن يتكهن من أى بعد أحسست بها ، ورأيتها ، فصورتها ؟ وفى اليوم التالى لا أتمكن حتى أنا نفسى من أن أدرك ما فعلته ! من ذا الذى يستطيع أن يتوغل فى أحلامي ، وفى غرائزى ، وفى رغباتى ، وفى أفكارى ، التى اتخذت وقتاً طويلاً لتتضج ، وتظهر فى ضوء النهار ، وفوق كل ذلك يستطيع أن يلمس من هذه الأشياء ما كنت أحاول أن أحققه ، حتى ضد رغبتى الذاتية ؟ » (١) .

فنتبين من حديث بيكاسو ، كيف يستطيع الفنان أن يكون على وعى بانتاجه ، كما يبين حديثه صعوبة إدراك هذا الانتاج ، وبخاصة اذا تذكرنا أن الفكرة التى تظهر فى العمل الفنى ليست وليدة الصدفة ، وإنما لها تاريخ طويل فى ماضى

(١) انظر للمؤلف ، آراء فى الفن الحديث ، ص ١٠٧ .

الفنان ، ولعله أقرب الناس الذى يستطيع أن يفسر لنا ما هو بصدده . على أنه من الممكن الحكم على إنتاج الفنان حكما أقرب الى الصحة ، لو أن الذى يحكم عليه فنان أعرق فى خبرته وبالتالي أصدق فى تفسيره . فى هذه الحالة يستطيع هذا الفنان أن ينظر بفهم ويعمق لعمل زميله ، متبينا نواحي القوة والزلل . والفن ما هو إلا لغة ، واللغة وسيلة للاتصال ، وكل من يتمكن من تعلم اللغة بعمق . يستطيع أن يتفهم المعانى ويكشف عنها .

معايير الجماهير : والجمهور ينظر الى الأعمال الفنية

بعقلية غير مدربة ، ويطلب الفنانين بأن ينتجوا له صوراً تضاهى الطبيعة ، وقل أن نجد بين الجمهور عدداً مثقفاً ينظر الى الأعمال الفنية نظرة موضوعية ، ويصدر أحكامه على ما تتضمنه من قيم . وكلمة جمهور تشتمل على كل هؤلاء الناس الذين لم ينالوا قسطاً من التدريب على الرؤية الفنية داخل المدارس ، أو خارجها . فليس من المعقول أن يؤخذ رأى هؤلاء حجة فى الوقت الذى نعرف جيداً أن آراءهم لا تستند الى منطق ملموس . وفى مسائل العلم ، لا يفكر أحد فى أن يعتمد برأى الجمهور ، أما فى الفن ففكرة الجمهور تلوكهما الألسن على الرغم من أن الفن والعلم أصبحا يعالجان من ناحية الخلق والابتكار على قدم المساواة . وإذا كان مضمون العملية العلمية لا يستطيع فهمها وتبصرها

إلا العلم ، كذلك العملية الابتكارية في الفن لا يدركها إلا
الفنان الناضج .

والجمهور في كل بلد له طبيعته ومطالبه . ولا يعقل بالنسبة
لجمهور جائع أن يفرق في البحث عن القيم العليا في الحياة ،
إذ أن هذه القيم تنمو مع نمو الاكتفاء الذاتي للشعب ، وليس
بمعنى هذا أن للشعوب الباحثة عن الحرية . وعن التطور ،
والتي ذاقت صنوف العذاب تحت نيران المستعمر ، ليس معنى
هذا أن هذه الشعوب لا فن لها . إن فن هذه الشعوب
عادة يتركز في فنونها الشعبية القريبة من نفوسها ، ولكن هذه
الفنون لا ترقى إلى مستويات الفنون التي تمثلها الحضارات
في أحسن حالاتها .

ما نريد أن نقوله : هو أن الحكم على القيم الفنية العميقة
في الأعمال المبتكرة ، لا يصح أن يستند إلى الآراء السوقية
السائدة ، وإنما يجب أن يدعمه العلم ، والثقافة ، والتدريب
المتمركز ، ليتمكن الحكم عليها ، حكما سليما .

وتعتقد الحكم مع تعقّد الابتكار : والأعمال الفنية للمبتكرة ،
يتمزج من البساطة إلى التعقيد ، ويتضاد بالتعقيد مستوى
الحق الذي قد تصل إليه الأعمال المبتكرة وهي في حالاتها
الرفيعة . وليس من السهل الحكم على الأعمال الأخيرة ، إذ أن

العمل الفني كلما وصل الى درجة من العمق : تطلب بالتالى عقلية على نفس المستوى لإدراكه . فالثقافة التى يعكسها الفنان فى عمله ، ليس من اليسير أن تنزل الى المستوى الدارج ، بل تحتاج حتما الى أشخاص نالوا حظهم من مثل هذه الثقافة ، وأصبحت تكون لديهم معايير ناضجة للحكم على الأشياء . ويمكن أن نجد مثلا واضحا فى القرآن ، إن تفسير القرآن يحتاج الى معرفة كبيرة ، وعلم عميق ، والذين يحفظون القرآن عن ظهر قلب فى حداثة سنهم ، يرددونه دون أن يعرفوا بالضبط ما يحتوى عليه من معان حتى يصلوا الى مرحلة أعلى من النضج . ويستمعوا الى ثقاه العلماء فى التفسير ، فيمكنهم أن يترجموا ما يهدى اليه ترجمة واعية . وفى كل الأعمال الأدبية ، والشعرية ، والموسيقية : تجد أن قسطا كبيرا من التعليم يحتاجه المستمتع بالفن لكى يتذوق تلك الأعمال الفنية ويفك طلاسمها . فان مجرد الرؤية الأولى للعمل الفني قد لا تعنى إلا التعرف والإدراك ، لكن لكى تتجول هذه الرؤية الى الاحساس بالعلاقات الجمالية ، فهذه مسألة أخرى تتطلب التدريب على استخدام هذه اللغة .

اختلاف الأسس باختلاف المدرسة الفنية : وليس من اليسير أن نضع أساسا عاما يمكن به قياس الأعمال المبتكرة على مر العصور . وكما ذكر فيما قبل من أن الابتكار يرتبط

بفلسفة العصر ، وبالاتجاهات الفنية السائدة ، لذلك فان معايير الابتكار تخضع الى حد ما لبعض القيود التي تفرضها الحضارة في زمن معين ، وليس أدل على ذلك من طبيعة الانتاج الفنى المبتكر ، فلو أن شخصا أنتج لنا أعمال ليوناردو في القرن العشرين ، لما اعتبر فنانا مبتكرا . ولذلك فان كل مدرسة فنية تضع في الواقع فروضا ، وتحدد آمالها ، وفي ضوء هذه الفروض والآمال ، يمكن أن تستمد معايير الحكم على أى انتاج يرتبط بهذه المدرسة ويدين بمبادئها . ولذلك فان انتاج المدرسة السريالية يفقد قيمته الى حد ما لو طبقنا عليه المبادئ التركيبية التي أكدتها المدرسة التكميلية ، كما أن الخيال الجامح ، وعدم التقيد بالواقع الذى يبدو فى أعمال فنان مثل شجال ، ينهار لو أنه قيس بالمبادئ الفنية التي دان بها عصر النهضة . من هذا نرى أن الاساس الذى بنيت عليه المدرسة الفنية ، هو المعيار الذى يمكن أن نطبقه للحكم على إنتاجها ، ويتضمن هذا ضرورة الإلمام بمبادئ كل مدرسة فنية ، وخطوطها العريضة ، لكي يكون الحكم على إنتاجها سليما .

ولكن يبدو للأذهان على الرغم مما ذكر ، أن خضوع الحكم على العمل المبتكر لقوانين مدرسة معينة ، يجعل نتيجة الحكم وقتية وآلية ، وهذا يتعارض الى حد كبير مع الفكرة التي قدمت آنفاً ، من كون الفن له قيمة عالمية ، ويخترق الحواجز

الزمانية والمكانية ، بل والعقائدية أيضا . والحقيقة أننا لا نجد تعارضا بين الاتجاهين ، فالحقيقة الفنية غنية ونها جوانب متعددة ، وقد جاهد الفنانون على مر العصور في الكشف عنها مؤكدين جانبا أو آخر ، معنى هذا أيضا أنه رغم الاختلافات التي تبدو ظاهرة بين مدرسة وأخرى . إلا أن العمل الفني لا يصبح له قيمة حقيقة إلا إذا اخترق الحواجز الضيقة بين مدرسة وأخرى . فالتقيد إذن بمبادئ مدرسة كأساس للحكم على العمل المبتكر الذي ينتمى إليها : ما هو إلا مسألة تمهيدية تساعد في الكشف عن قيمة هذا العمل ، وستبدو تلك القيمة جلية كلما كان العمل يحمل قيما دائمة ، ولم يأخذ بالحرفية الشكلية لطابع المدرسة . إن الأساس الذي بنى عليه التعبير في مدرسة معينة ، هو مفتاح يساعد في تقديمنا لهذا العمل ، وفهم فلسفته ومكوناته ، ولكن لكي نحكم بجودة هذا العمل أو بضعفه يجب أن نأخذ في الاعتبار ما استطاع أن يحمّله الفنان لهذا العمل من معانٍ وقيمٍ دائمةٍ بالأسلوب التشكيلي ، أي بلغة العلاقات بين الخط ، والمساحة ، والكتلة ، واللون .

قد يحدث في أحوال كثيرة ، أن يتجمع نفر من النقاد والفنانين في لجان تحكيم أو مقتنيات ، ليصوتوا على أي الأعمال المعروضة أفضل من الناحية الفنية . ولقد حضر المؤلف لجان تحكيم من هذا القبيل ، وشاهد التعصب الشديد الذي

يتجه اليه كل فنان أو ناقد في الحكم على الأعمال الفنية ، وكان يبدو في كثير من الأحيان أن أعضاء اللجنة لا تجتمع أصواتهم بعضها مع بعض في صالح عمل أو ضده ، فالأكاديميون كانوا ينحازون دائما للأعمال التمثيلية ، بينما الحديثون لا يهتمون إطلاقا بتسجيل الطبيعة ، وتبدو أمامهم القطع الفنية جيدة أو سيئة ، إذا كانت تسجل أو لا تسجل قدرا من الأسس الفنية التي يستند إليها الفن الحديث . وهذه مسألة جديرة بالاعتبار . إذ أن هذا الخلاف الواضح ليس خلافا فقهيًا ، وإنما خلاف تعسبي ، أي يوصل الرائي الى قبول أو رفض نزعات فنية معينة حينما لا تلتقى هذه النزعات باتجاهاته ومفاهيمه . ليس من الضروري إذاً أن يكون حكم أى مشتغل بالفن سليما من الناحية النظرية ، إذ أن الحكم على الأعمال الفنية أشبه ما يكون بالحكم على القضايا المختلفة ، فلكي يكون القاضى نزيها ، يجب أن تكون لديه القدرة على أن يخترق ببصره العمل الفنى ويكشف عن محاسنه ومثالبه ، ثم يزن كلتا الناحيتين في كفتين ، ويصدر حكمه التالى على مدى نجاح هذا العمل . إن القاضى الحكيم لا يطبق القانون تطبيقا حرفيا ، وإنما يأخذ في اعتباره الملابسات والظروف المختلفة التى فى ظلها حدث اختراق للقانون . كذلك فى الحكم على العمل الفنى ، توجد بلا شك مفاهيم عامة ، وأسس ومبادئ. يمكن أن يتعلمها الانسان فى معاهد الفنون وكلياتها

للحكم على الأعمال الفنية . ولكن حينما يحكم الانسان على عمل فنى مبتكر ، يجب أن ينسى كل هذه القواعد والأسس العامة . حتى لا تعوقه عن كشف ما يحمله العمل الفنى من قيم جديدة . فكل عمل فنى مبتكر يحمل قوانينه الذاتية ، وهو كالطفل حديث الولادة ، لا يشبه أى مخلوق آخر . ويفهم ضمناً من هذه المناقشة . أن الفنان يعكس طرازه فى عمله الفنى ، وطرازه هذا هو محصلة التصارع بين للعلاقات المختلفة حينما تتداخل . وتتسبك ، وتندمج وتأخذ طابعها المميز . فالطراز يتضمن حتماً إعادة ترجمة القوانين والأسس الفنية ترجمة ذات طابع خاص . وإذا سلمنا بهذا يصبح من غير المعقول الحكم على طراز بتطبيق قواعد وأصول مطلقة . ولا توجد هذه القواعد والأصول فى مجال فنى بدون أن يتحكم طراز فى تشكيلها وحياتها بشك معين ، ولذلك فمن أين تأتى مثل هذه المواصفات الخاصة بالقواعد والأصول ؟ إنها لا تستثار عادة إلا فى ذهن بعض المشتغلين بالفنون ، وتستثار كما لو كان لها وجود مستقل . والحقيقة غير ذلك . إن وجودها يأخذ شكله ومصيره فى كل عمل فنى مبتكر . وهى تظهر فى كل حالة مبتكرة متكيفة لتؤدى وظيفتها الملائمة فى هذا العمل . إن المسألة تتطلب ذكاء من الناقد الذى يحكم على الأعمال الفنية . إذ لا بد أن يكون عنده إلمام واسع بالاتجاهات الفنية ، سابقها وحاضرها ، كما يجب

أن يكون لديه من الخيال ما يمكنه من رؤية الجديد واستساغته ،
وكشف النقاب عما يحمله من قيم .

لقد تحدث ذات يوم أحد النقاد في متحف الفن الحديث
بنيويورك قائلاً : « إن وظيفة متاحف الفنون الحديثة ليست
الدعاية لترويج إنتاج فنان معين أو إملاء اتجاهات على الفنانين ،
وإنما هي في الحقيقة العمل على تقديم قرائح الفنانين على
اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم للجمهور ، لكي يتذوقها في أثناء
حياتهم » إذ أن كثيرا من الفنانين في العهود الماضية ، كانوا
يعيشون طوال حياتهم ويجدون نكرانا من المجتمع المحيط بهم ،
ولا يكاد يعترف بقيمتهم إلا وهم في شيخوختهم . أو بعد
ماتهم ، فكان الجيل الذي يعيش فيه الفنانون يحرم حقيقة
من تذوق أعمالهم ، وتقديرهم ، ولذلك كانت توجد دائما هوة
سحيقة بين الجمهور وبين الفنان . إن وظيفة متاحف الفن
الحديث في العصر الحاضر ، هي التغلب على هذه الهوة ،
والتقريب بين الفنان وبين جمهوره عن طريق إتاحة الفرصة
لأعمال هذا الفنان ، بأن تعرض وتشرح ليفهمها الجمهور .
إننا لا نؤمن بالضغط على الفنان لكي يشق طريقه في هذه
الناحية أو تلك ، ويتبع مرغما هذا المذهب أو ذاك . إن الفنان
الأصيل هو الذي يختط طريقه ، ويتبلور طرازه ، وتظهر عبقريته
مائلة أمام أعين الناس ليتذوقوها . ولذلك فإن رسالة متاحف

الفن الحديث ليست إملاءً لاتجاهات معينة ليحققها الفنانون ، وإنما هي عرض لاتجاهات الفنانين أنفسهم كما تظهر نتيجة لقدراتهم الخلاقة وشرحها للناس ليتذوقوها •

إنه على الرغم من الاختلافات بين المدارس الفنية ، ومن التعصب الذي قد يبدو أحياناً عند المنتمين لمدرسة أو لأخرى من الحكم على الأعمال الفنية ، إلا أن تلك الأعمال اذا كانت ذات قيمة حقيقية ، فانها كفيلة بأن تخرس الألسن ، وتحنى أمامها الرؤوس ، وإن أى خلاف عليها مسألة مظهرية أكثر منها حقيقية •